

للدكتور يوسف الكتّاني


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لعل كتابا بعد كتاب الله ، لم يهتم به المغاربة كما اهتموا بصحيح الامام البخاري واقبلوا عليه واحبوه ، حتى وقف كثير منهم حياته عليه وعلى الاهتمام به والعناية ، وقد شملت هذه العناية سائر مظاهر الحياة الفكرية والسياسية والدينية ، فلم تخل جامعة او مسجد أو حلقة من حلقات الدروس في يوم من الايام ، من دراسته واقرائه واسماعه ، مما ادى الى ظهور المتخصصين في حفظه وتدريسه وقراءته ، والعاكفين على نسخه وكتابته ، حتى امتلأت خزائننا العامة والخاصة بمئات نسخ الجامع النفيسة وا فريدة في العالم أجمع .

كما تجلى هذا الاهتمام بالبخاري في الاعراف والعادات والآداب الاجتماعية ، وفي المعاملات ، والاعياد ، والمناسبات الدينية ، وفي اتخاذه اسما للعائلات ، والمؤسسات التعليمية وغيرها .

وكان من نتائج اقبال المغاربة على الجامع الصحيح ، عنايتهم واهتمامهم بدراسته ، فكتبوا حوله مئات الشروح والتعاليق والحواشي ، وخصصوا مجالس لافتتاحه واختتامه ، مما دفعنا لتخصيص هذا البحث عن تلك المجالس الخالدة .

افتتاحيات البخاري :
تعريف :

لعل الافتتاح او افتتاحيات الجامع الصحيح لابي عبد الله البخاري مما اختص به المغاربة وانفردوا ، وكان من مبتكراتهم العلمية وتآليفهم وانشاءاتهم الحديثية .

وقد قصروا تلك الافتتاحيات على صحيح البخاري وحده دون بقية كتب الحديث او الفنون الاخرى ، فلم تعرف لهم افتتاحيات لكتاب الموطا لمالك ، او لصحيح الامام مسلم ، او لبقية الكتب الستة وغيرها من الكتب الحديثية والعلمية ، كالنحو والفقه والاصول وغيرها على كثرة عناية المغاربة بكتاب الموطا وصحيح مسلم ، وشدة اهتمامهم بهما خاصة .

وقد كان الامر في الافتتاحيات على عكس الختمات التي لم تكن قاصرة على صحيح البخاري وحده ، عند الانتهاء من قراءته واقرائه ، اذ مثلما كان يحقد المحدثون والعلماء مجالس لختم صحيح البخاري ــ كما سنفصل فيما بعد ــ ، كانت تعقد مجالس لختم مسلم والترمذي وغيرها من بقية الكتب الستة ، كما عرفت العلوم الاخرى مجالس الختم ، كالمختصر والاجرومية وابن عاشر وغيرها ، وناهيك بختمة الاجرومية للشيخ محمد ابن عبد الكبير الكتاني بجامع القرويين ، ومجالس الختم التي عقدها سيدي جعفر وولده سيدي محمد بن جعفر الكتاني وغيرهم .

اما افتتاحيات صحيح البخاري فهي من مبتكرات المحدثين المغاربة ، ومن منشآتهم العلمية غير مسبوقين اليها ــ فيما نعلم ــ كما انها خصت بصحيح البخاري دون سواه من بقية كتب الحديث ، ومن دون بقية العلوم الاخرى .

لذلك كانت مظهرا فريدا من اهتمامهم بدراسة الجامع الصحيح والعناية به ، وتفرغهم الكامل لدراسته وتدريسه ، وقراءته واقرائه ، وسماعه واسماعه ، وافراغ الجهد والطاقة لتفهم معانيه والفاظه ، والتعمق في دراسة متونه وأسانيده .

مجـالسهـــا :

وقد تصدى لعقد مجالس الافتتاح المحدثون النابغون من المغاربة المتفرغون لدراسته وتدريسه، اذ عرفت مراكز الثقافة من مساجد وزوايا ومدارس بمدن المغرب وقراه، مجالس حافلة لافتتاح البخاري من طرف العلماء والمحدثين، امثال الشيخ عبد القادر الكوهن في افتتاحيته المشهورة والتي عقدها واملاها في محفل كبير وجمع عظيم سنة 1252 هـ وهي مطبوعة، وافتتاحية صحيح البخاري المسماة « بسملة الصحيح والسند اليه » لابي عبد الله محمد بن ابي الفيض حمدون بن الحاج، وافتتاحية الشيخ فتح الله بناني المطبوعة سنة 1347 هـ والتي سماها « رفد القارىء بمقدمة افتتاح صحيح الامام البخاري »، وافتتاحيات المحدث المدني بن الحسني الثلاث، ولدينا الثالثة منها المسماة « ثالث افتتاح لاصح الصحاح »، وقد املاها في اول رجب سنة 1343 هـ الى غير ذلك من الافتتاحيات التي سنذكرها في آخر هذا البحث على ان نقدم دراسة مركزة عن هذه الافتتاحيات الاربع كنموذج للافتتاحيات المغربية، وتعريفا بهذا الفن من فنون الحديث، الذي ابتكره المغاربة وسبقوا فيه غيرهم، وكان مظهرا من أروع مظاهر اهتمامهم بالصحيح.

عناصرهـــا :

تتركز عناصر الافتتاحيات على ما يلي :

— الكلام على فضل العلم والعلماء ومجالسه وتعليمه وخاصة علم الحديث.

— الكلام عن سبب اقتصار البخاري على البسملة مكتفيا بها عن الحمد، لتضمنها معناه اقتداء وجريا على سنن الصدر الاول، وفي مقدمتهم النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله.

— الكلام على سبب تصدير الجامع الصحيح بترجمة بدء الوحي، بيانا لمقصد المؤلف من كتابه.

— التعريف بالبخاري : حياته ونشأته وفضله.

— الكلام عن الجامع الصحيح وكيفية تاليفه .

— الكلام على الاسنـــاد والسند الى البخـــاري .

— شرح حديـــث النيـــة سنـــدا ومتنـــا .

— الختم بالدعاء والصلاة على النبي الكريم (1) .

بعض الافتتاحيـــات المعروفـــة :

شـــرح اوائـــل صحيـــح البخـــاري (2) :

مصطفى بن محمد القسطموني ؛ الفه سنة 981 هـ / 1073 م .

مقدمـــة على صحيـــح البخـــاري (3) :

محمد بن قاسم بن محمد جسوس المتوفى سنـــة 1182 هـ / 1798 م ، توجد بالخزانة العامة تحت عدد : 478 د ، وهـــي بخـــط المؤلـــف .

نفحـــة المسك الـــداري لافتتـــاح صحيـــح البخـــاري :

حمدون بن الحـــاج السلمـــي المتوفـــى سنة 1232 هـ .

افتتـــاح صحيـــح البخـــاري (4) :

عبد القادر بن احمد الكوهن الفاسي المتوفى سنة 1254 هـ .
توجـــد بالخزانـــة العامـــة تحـــت عدد : 746 د .

---

(1) انظر تفاصيل الموضوع في كتابنا : « مدرسة الامام البخـاري في المغرب » 615/2 ومـــا بعدهـــا .
(2) تاريخ التراث العربـــي : المجلـــد الاول : ص 339 .
(3) السلوة 1 / 330 – معجم المؤلفين 11 / 199 – تاريخ الرثات العربي : ص 301 .
(4) معجـــم المحدثيـــن : ص 23 .

رسالة في مناسبة ابتداء البخاري (5) بقوله كيف كان بدء الوحي :

محمد بن محمد بن قدور المراكشي اليزمي المكني بالابيض ، المتوفى سنة 1270 هـ / 1835 م .

بسملة صحيح البخاري والسند اليه :

محمد بن ابي الفيض حمدون بن الحاج السلمي المتوفى سنة 1274 هـ / 1858 م . توجد بالخزانة الملكية في مجموع تحت عدد : 2/173 من ص 93 الى 126 .

رفد القارىء بمقدمة افتتاح صحيح الامام البخاري (6) :

الشيخ فتح الله ناني ، طبعت سنة 1347 هـ بالمطبعة الاهلية بالرباط .

مقدمة الرعيل لجحفل محمد بن اسماعيل :

المدني بن الحسني المتوفى سنة 1378 هـ / 1958 م .

الميدان الفسيح من بسملة الصحيح (7) :

المدني بن الحسني أيضا ، وهو ثاني افتتاح له ، كان في اول شعبان 1342 هـ .

ثالث افتتاح لاصح الصحاح :

لنفس المؤلف ــ يوجد بالخزانة الملكية ضمن مجموع تحت عدد : 1821 د .

---

(5) الاعلام للمراكشي 5 / 294 ــ الموسوعة المغربية 2 / 88 .
(6) فهرس الفهارس 2 / 47 .
(7) معجم المحدثين : ص 35 .

دراســـة افتتاحيـــات نموذجيـــــة

افتتاحيـــة الشيـــخ الكوهـــن :

لقد بدأ الشيخ عبد القادر الكوهن افتتاحيته للجامـــع الصحيـــح ، بالبسملة والحمد لله والصلاة على رسوله سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ذاكرا : « بأنها منح الهية ، ومواهـــب اختصاصيــــة ، واشراقات قدسية ، وامدادات نبوية ، من بها باريء البريات ، وتفضل بها مجزل العطيات ، جعلتها كالشرح لترجمة بدء الوحي مع حديث انما الاعمال بالنيات من كتاب الجامع الصحيح ... » (8) .

وقد ألمح الى انه رجع في شرحه لهذا الحديث الى زهاء ثلاثيـــن مؤلفا ، وأتى فيه بالفرائب واللطائف والتحف (9) .

ثم تحدث عن وجوب اهتمام العالم وحصر همه واختصاص عملـــه ، بالاشتغال العلوم الدينية التي مدارها على الكتاب والسنة ، باعتبار ان بقية العلوم الاخرى آلات لفهمها ، فهي التي ينفق في الاشتغال بها والجري على مقتضاها ، يواقيت الاوقات من أجل الحصول على السعادة الموصلة الى اعلى الدرجات ، وان الامام البخاري في جامعه قد تصدى للاقتباس مـــن انوارهما ، وانه وفق فيما جمعه حتى أصبح جامعه قبلة الدارسين ومرجع العلمـــاء والمحدثين .

مستدلا على قوله بالحديث الشريف : « تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنتي » ، وباشعار في فضل الكتاب والسنة.

ثم تحدث عن فضل العلم من حيث هو آيات واخبار ، وأورد في ذلك آيات قرآنية واحاديث نبوية ، وفصل الكلام عن مجلسه واهله ، وفضـــل تعليمه وخاصة علم الحديث .

كما تحدث عن سبب اقتصار الامام البخاري على البسملة دون الحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، مكتفيا بالبسملة لتضمنها معنى

---

(8) من افتتاحيات الشيخ الكوهن الموجودة بالخزانة الملكية تحت عدد 746 / ص 1 .
(9) المرجـــع السابـــق : ص 2 .

الحمد ، ولكون ذلك كان صنيع السلف اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في كتبه الى هرقل وغيره ، ومثل مالك في الموطا ، وأحمد في مسنده ، وابــي داود .

كما ان الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ليست ثابتة في اصل البخاري على عادة الصدر الاول ، وانما حدث الابتداء بها فيما بعد القرن الــرابــع .

ثم بين تصدير الجامع الصحيح بترجمة بدء الوحي بيانا لمقصده ، على ان العمل دائر مع النية ، فدل بكتابه قصده على جمع وحي السنــة المتلقى عن خير البرية ، مكتفيا بالتلويح عن التصريح ، تاركا التعريــف بنفسه تواضعــا منــه .

وتكلم عن العلماء وفضلهم على الناس ووجوب تعظيمهم وتوقيرهم ، واورد في ذلك اخبارا واقوالا ، ثم انتقل الى التعريف بالامام البخاري حيث تكلم عن حياته واسرته ونشأته وكيفية تعلمه ، واخذه ونبوغه المبكر ، وعن قصص حفظه ورحلاته ، واول ما الف من الكتب ناقلا نصوصا في ذلك .

ثم تحدث عن فضل الصحيح وسبب تاليفه وكيف الفه ، وعن سبب الافتتاح بالبسملة ووجوب ذلك اقتداء بالكتاب الكريم ، وتكلم عنها مــن الناحية الفقهية ، ثم شرح البسملة شرحا لطيفا موجزا ، وذكر ما قالــه العلماء في شرحها مشيرا الى اسرارها ومعانيها .

ثم بدا في شرح « كيف كان بدء الوحي » مشيرا الى اسقاط لفـظ باب في رواية ابي ذر وغيرها ، وتطرق الى اعرابها مع بقية كلمات الحديث، ذاكرا اعتراض محمد بن اسماعيل التيمي على عبارة كيــف كــان بــدء الوحــي (10) ورد عليه واخذ في شرح الحديث .

وتحدث عن الرواية السعادية وقيمتها واجازة الصدفي له على وجهها سنة 493 هـ، وقراءته البخاري بها على شيخه الصدفي أكثر من ستين مرة،

---

(10) المصــدر السابــق : ص 31 .

وعرف بابن سعادة وابن اخيه محمد بن يوسف بن سعادة ، كما ترجم لابي علي الصدفي .

كما تحدث عن اوجه الاخذ واقسام التحمل ، واردفه بالكلام على سند البخاري الى ابن سعادة ، وترجمة الوسائط الخمس بينهما ، واتى بسنده الى البخاري برواية ابن السعادة (11) سماعا وقراءة بجميعه على شيوخه، بدء بأبي العلاء ادريس العراقي الى الامام البخاري .

ثم ذكر روايته للصحيح برواية ابن حجر (12) ورواه ايضا بسند عال جدا وأورد سنده الاول نظما .

وتحدث عن رجال السند مبينا سبب افتتاحه الرواية عن الحميدي بكونه قرشيا ومكيا ، ثم تابع كلامه على رواية الحديث ورجال سنده ، بالحديث عن مناسبة افتتاحه بحديث النية جريا على عادة السلف ، لاستحبابهم استحضار الاخلاص والنية الصحيحة عند الشروع في العمل ، وذكر اقوال العلماء في الترغيب عند التأهب بالابتداء بهذا الحديث ، ذاكرا انه احد الاحاديث الاربعة التي قيل ان مدار الدين عليها ، ثم اورد كلام ابن حجر على هذا الحديث ، وعلى صحته ، وعلى من خرجه من المحدثين .

ثم اخذ في شرح كلمات المتن ومعانيه بتفصيل ، من حيث النحو والاعراب والبلاغة والكلام عن الاعمال والنية واقوالها ، التي اوصلها الى خمسة وعشرين عددها جميعا حسبما وصل اليه اجتهاده .

وتحدث عن راي البخاري في جواز رواية الحديث بالمعنى ، والاختصار من الحديث ، والاقتصار على دلالة الاشارة غالبا منها الى انه استعمل جميع ذلك في هذا الحديث .

وتابع شرحه للحديث عن الهجرة وكونها كانت على وجهين في الاسلام :

---

(11) المصدر السابق : ص 42 – 44 .
(12) المصدر السابق : ص 44 .

الهجرة من دار الخوف الى دار الامن ، كما في هجرتـــي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة الى المدينة .

والثاني الانتقال من دار الكفر الى دار الايمان بعد ان استقـــر صلى الله عليه وسلم .

وتخلص للحديث عن النساء وكيدهن وعصيانهن محذرا من فتنتهن ، ثم تحدث عن اقسام المهاجرين في الحديث ، من هاجر لله ورسوله ولـــم يشب هجرته بحظ ، ومن هاجر لمجرد حظه من الدنيا والمرأة ، ومن هاجر للامرين معا كمن سافر للحج وزيارة المصطفى وللاتجار ايضا ، متكلما عن احكـــام تلـــك الاقسام .

ثم ختم باعتراض بعض العلماء على الامام البخاري ادخال حديـــث الاعمال في بدء الوحي ، لانه لا تعلق له به اصلا ، كما ذهـــب الخطابـــي والاسماعيلي ، حيث اخرجا ، الاول في شرحه ، والثاني في مستخرجه قبل الترجمة لاعتقادهما انه اورده للتبرك به ، ذاكرا ايضا قول ابـــن رشد بأن ايراد الحديث من طرف البخاري ، لم يقصد به سوى بيان حسن نيتـــه في هـــذا التاليـــف .

واكد الشيخ الكوهن راى ابن حجر ومن تابعه ان البخاري اقامه مقام خطبة الكتاب ، لان في سياقه ان عمر قاله على المنبر ، وان النبي صلى الله عليه وسلم خطب به حين قدم المدينة مهاجرا ، فمناسبـــة ايراده في بدء الوحي ، ان الاحوال التي كانت قبل الهجرة كانت كالمقدمة لها، وهو راي استحسنه ابن حجـــر (13) .

ثم انهى افتتاحه بالكلام عن الاخلاص والمخلصين ، داعيا ومصليا على النبي وجميع اخوانه ، من النبيئين والمرسلين ، واصحابه والتابعين ، ومن تبعه باحسان الى يوم الدين ، وكان الفراغ من هذا الافتتاح ضحوة يـــوم الخميس مفتتح ذي الحجة الحرام عام 1252 هـ .

(13) المرجـــع السابـــق : ص 65 .

2) افتتاحية الشيخ حمدون بلحاج (14) :

وثاني هذه الافتتاحيات التي عثرنا عليها وهي مخطوطة ايضا ، افتتاح الصحيح لابي عبد الله محمد بن ابي الفيض حمدون بلحاج .

بدا صاحب الافتتاح الكلام في الموضوع بدون مقدمة او مدخل ، حيث ذكر سبب افتتاح البخاري الصحيح بالبسملة ، لما نقل من الاجماع على ان الله ابتدا بها كل كتاب أنزله ، ولانها من خصائص الامة المحمدية ، مستدلا بالحديث:«كل أمر ذي بال لا يبدا ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر» ولما كان تأليف هذا الكتاب أي الصحيح مهما ، بدا بالبسملة ، ثم عدد خصائصها ومزاياها ، باعتبارها امانا ودواء وكلمة تقوى .

وتكلم عن الاسناد ومركزه في الدين ، واقوال المحدثين والسلف فيه، وكونه من خصائص المسلمين ، متحدثا عن رواية ابن سعادة ذاكرا انها هي المفضلة عند المغاربة على الروايات التي عند ابن حجر ، معرضا براي التاجموعتي فيها ، ثم عرف بصاحبها وبكيفية اخذه وملازمته لصهره ابي علي الصدفي ، وانتساخه لصحيح البخاري ومسلم وسماعهما عليه اكثر من ستين مرة .

وتحدث عن فضائل العلم وفضل العلماء ، واورد الآيات والاحاديث بالموضوع ، ذاكرا الطرق الموصلة الى العلوم الدينية ، ثم روى حديث المقربين الى النبي صلى الله عليه وسلم الذين هم اكثر صلاة عليه ، وفي مقدمتهم العلماء ، وذكر سنده الى صحيح البخاري عن طريق والده ، فشيوخه الى الامام البخاري رضي الله عنه ، مع ترجمة رجال سنده ترجمة مطولة استغرقت حوالي ثلث الافتتاحية (15) .

وانتقل الى ترجمة الامام البخاري صاحب الصحيح ، والتعريف به وبحياته ونشاته ، وقصص حفظه ونبوغه ورحلاته للحج والرواية ، وذكر قصته مع اصحاب الحديث ببغداد ، واقوال العلماء وثناءهم على علمه

---

(14) عن مصورة مكتبتي ماخوذة من مخطوط بالخزانة الملكية .
(15) م ن : ص 101 الى ص 114 .

وحفظه ، وتكلم عن فتنة خلق القرءان وما اصاب البخاري منهما ، والوحشة التي وقعت بينه وبين الذهلي ، ثم تحدث عن صفات البخاري كالكرم والاحسان الى الناس ، وزهده في الدنيا وعن عبادته ومداومته على تلاوة القرءان الى ان توفى رحمه الله ، وذكر ثناء العلماء والمحدثين عليه وفي مقدمتهم الامام مسلم ، منتهيا الى الكلام عن اول المؤلفين في الحديث قبل الامام البخاري الذي يعتبر اول من الف في الصحيح .

كما ذكر الباعث على تأليف كتاب الجامع وكيف الف باختصار ، منهيا افتتاحه بالكلام على فضل قراءته نقلا عن ابن ابي حمزة،ذاكرا ما قيل فى تفضيله على صحيح مسلم ، مستشهدا بقول صاحب الالفية في ذلك .

وهكذا نرى ان هذه الافتتاحية لم تتناول حديث الاعمال ، لا من حيث المتن ، ولا من حيث السند ، وانما اكتفت بالحديث على الافتتاح بالبسملة، وما قيل فيها ، وفضل العلم والعلماء ، وذكر سند صاحب الافتتاح الى البخاري ، والتعريف برجال سنده ، ثم ترجمة الامام البخاري ، وسبب تاليفه جامعه الصحيح ، وفضل قراءته ، وتفضيله على صحيح مسلم .

3) افتتاحية الشيخ فتح الله بناني :

تتميز هذه الافتتاحية عن سابقتها بكونها مطبوعة في كتاب مستقل يحمل الاسم الذي وضعه لها صاحبها ومنشئها الشيخ فتح الله بن ابي بكر بناني ، وهو « رفد القارىء بمقدمة افتتاح صحيح الامام البخاري » وقد عرفها بقوله في مفتتح كتابه : « هذه رسالة مفيدة جليلة ، اشتملت على بعض الكلام على مبادىء علم الحديث ، وبعض فضائله وفضائل المحدثين ، وعلى ترجمة سيدنا الامام البخاري وبعض اسانيدنا للصحيح رضي الله عنه، كنت جمعتها قبل ، عند افتتاحنا الصحيح المذكور بزاويتنا الفتحية المراكشية عمرها الله بالنور واهله ، وامنها واهلها وكل من آوى اليها وزارها ، بكمال الصدق ووفاه من كل سوء ... الخ)) (16) .

بدأ الشيخ افتتاحيته بالكلام على الحديث وتعريفه ، وموضوعه ونسبته وفضله وحكمه ، منبها الى ان اولى ما تصرف له النفوس هو

(16) رفد القاري بمقدمة افتتاح صحيح البخاري : ص 1 و 2 .

الاشتغال بالعلوم الدينية المتلقاة من الحضرة النبوية ، والتي مدارها على الكتـــاب والسنـــة .

ثم تحدث على العلم الشرعي واقسامه الثلاثة ، وعن تعلم الحديـــث وفضل المحدثين ، كما تحدث عن بداية التدوين ، وعن اول من امر بكتابة الحديث ، وعن اول من جمعه ، وان اول من صنف في الصحيح هو الامام البخاري مخصصا لـــه حيـــزا كبيرا من افتتاحيته لترجمة حياتـــه ، متكلما عن ولادته ونشأته ورحلاته العلمية ، وذكائه ونبوغه واخلاقه والثناء عليه ، متحدثا عن فضل قراءة البخاري ، ناقلا كلام الامام ابن ابي جمرة في الموضـــوع .

ثم اخذ في الكلام على كتابه الصحيح ، كيف الفه ، وطريقة تاليفه ، متحدثا عن ابوابه وكتبه ، وعدد احاديثه وتعاليقه ومتابعاته ، وذكر اسانيده الى الجامع الصحيح من طريق المغاربة ، ومن طريق المشارقة ، وسنـــدا عاليا من طريق الجان ، وآخر من طريق الشاميين ، وعقب على سنده مـــن طريق الجان وثبوت صحبة القاضي شمهروش للنبي عليه الصلاة والسلام ، وكلام المحدثين في الموضوع ناقلا عجيبة للشيخ احمد دحلان في تأييد السند المذكور (17) ثم ناقش تلمذة السيوطي لابن حجر واخذه عنـــه ، ذاكرا رأي العلماء في ذلك (18) ما بين مثبت ومعترض ، موردا رأي العلماء المغاربة والمشارقة في الموضوع ، كما اورد قصيدة الامام ابي القاسم ابن عساكر الدمشقي الشافعي في علم الحديث .

وأنهى افتتاحيته باجازة عامة بصحيح البخاري ، وسائر مروياته ، لكل محب ومريد وسالك ، فيه أهلية للرواية والمروي ، داعيا ومصليـــا على النبي صلى الله عليه وسلم ، مسجلا انه اكمل تخريجها من المبيضة بتاريخ 18 ذي القعدة الحرام عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة والف (19) .

من هذه الدراسة نتبين أن هذه الافتتاحية ، تناولت في أولها مـــا تناوله العلماء السابقون ، في بداية افتتاحياتهم ، من التحدث عن فضـــل

(17) المرجـــع السابـــق : ص 20 وما بعدهـــا .
(18) المرجـــع السابـــق : ص 24 – 30 .
(19) المرجـــع السابـــق : ص 31 .

العلم وفضيلة المحدثين ، وترجمة حياة الامام البخاري والكلام على صحيحه، وكيفية تاليفه ، وذكر سند صاحب الافتتاحية الى الجامع الصحيح .

غير ان صاحب هذه الافتتاحية لم يكتف بسند واحد بل اورد فيها اسانيده الاربعة الى الصحيح ، من طريق المغاربة ، والمشارقة ، والشاميين والجان .

وتميزت افتتاحيته ايضا بمناقشتين مهمتين : الاولى تتعلق بمناقشة سنده الى البخاري عن طريق الجان ، وعن حقيقة القاضي شمهروش ، وصحبته للرسول عليه الصلاة والسلام ، مثبتا ذلك ومؤيدا له بفتوى للشيخ دخلان .

والمناقشة الثانية تتعلق بتلمذة السيوطي واخذه عن الحافظ ابن حجر ، في حين انه من الثابت ان الحافظ مات وسن السيوطي لا تتعدى ثلاث سنوات ، موردا راي العلماء بتفصيل واسهاب .

كما تميزت هذه الافتتاحية باجازة صاحبها بالجامع الصحيح وبمروياته ، لكل المحبين والمريدين اجازة عامة .

4) افتتاحية الشيخ المدني بن الحسني :

وقد سماها : « ثالث افتتاح لاصح الصحاح » وكانت في اول رجب سنة 1343 هـ (20) وقد سبق هذه الافتتاحية افتتاحيتان : الاولى بالمسجد السائحي في فاتح رمضان سنة 1341 هـ سماها : « مقدمة الرعيل لجحفل محمد بن اسماعيل » وقد املى في هذا الافتتاح ، ما يتعلق بالحديث واطواره وفائدته ، لعظمة قدره وشرف مقداره ، كما ذكر فيه سنده الى الجامع الصحيح ، وتفصيل حال رجاله ، وذكر تراجمهم مما يناسب المقام .

والافتتاح الثاني وكان في اول شعبان سنة 1342 هـ سماه : « الميدان الفسيح من بسملة الصحيح » املى في بدايته حياة الامام

(20) مصورة مكتبتنا من مخطوط ضمن مجموع بالخزانة الملكية عدد 1821 د .

البخاري وترجمته من ولادته الى وفاته ، وما ورد من ثناء الائمة عليه وتعظيمه واكباره .

وذكر في ختامه وصية البخاري الرباعية ، مع شرح ما تضمنته من الفوائد الغزيرة والفرائد الابداعية ، وذلك بغاية الاطناب وتمام الاطالة والاسهاب ، لاتيانه على غالب ما للحديث وطالبه من الآداب ، وما يلزم للاثرى اقتفاء اثره والتمسك منه بالاهذاب (21) .

اما الافتتاح الثالث الذي نحن بصدد دراسته فقد سماه « ثالث افتتاح لاصح اصحاح » وكان في اول رجب سنة 1343 الموافق 1973 .

وقد ابتداه بلفت النظر الى ما سبقه من افتتاحيات ، الاولى في رمضان من سنة 1341 هـ بالمسجد السائحي ، والثانية فى فاتح شعبان من السنة الموالية ، والثالثة في رجب 1343 هـ ، وكانت هذه الافتتاحيات حلقات متصلة فيما بينها ، مكملة لبعضها ، حيث كانت الاولى مدخلا تكلم فيها عن الحديث وادواره ورجاله وسنده الى الامام البخاري ، بينما تحدث في الثانية عن ترجمة الامام البخاري بما يشفي ويرضي ، كما تحدث عن وصيته الرباعية وشرح فوائدها الابداعية ، في حين خص الثالثة بالكلام على المقصود ، حيث اشار الى سبب ابتداء البخاري بالبسملة ، وجعلها تاجا لصحيحه ، جريا على عمل السلف وصنيعهم ، مكتفيا بالتلويح عن التصريح بمضمون الصحيح ، تاركا التعريف بنفسه تواضعا منه ، مشيرا الى الكتابة الموجودة على نسخ المغاربة بأنها ليست من كلام البخاري جملة ، ولا توجد في نسخ المشارقة . ثم اتى بالشواهد على ابتداء اكثر المصنفات بالبسملة ، واورد اشعارا مختلفة فيها ، وعلى ما ورد فيها من الآيات والاحاديث ، وكلام العلماء ، مستشهدا بكلام ابن حجر بكون كتب الرسول عليه افضل الصلاة والسلام بدئت كلها بالبسملة ، مختصرا في الموضوع « رسالة الاقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة » وعدد المواضع التي بدىء فيها بالبسملة كاللوح المحفوظ ، والكتب السماوية ، متحدثا عن البسملة وهل هي من الفاتحة ام لا ، واورد النصوص على ذلك وراي المذاهب فيها ، من حيث اداء الفرض والنقل ، واختلافهم

(21) معجم المحدثين : ص 35 ـ والحافظ الواعية محمد المدني بن الحسني : ص 19 .

في ذلك ، واورد نصوص كتب النبي عليه السلام الى قيصر ، والى كسرى وغيرهما ، وهي مفتتحة كلها بالبسملة ، ثم أورد حديث كل امر ذي بال وتكلم عنه وعمن روى صيغه وعن اقوال العلماء ، واطال الكلام عن هذا الحديث متخلصا الى الحديث عن شروط العمل بالضعيف ، واورد اربعة اسئلة حول البسملة ورد عليها ، كل ذلك من رسالة الاقاويل المفصلة ، ولما انتهى من اختصارها وايراد ما جاء فيها اتى بتقريظ له عليها (22) اغلبه اشعار .

ثم رجع الى موضوع البسملة ، متحدثا عما ورد في فضلها العظيم من احاديث واقوال ، وذكر المواضع التي شرع فيها ذكر البسملة ، كالوضوء والغسل والاكل والشرب والزكاة وغيرها كما جاء منظوما في الابيات التالية :

ومثله تسمية وشرعت في غسل وتيمم كما ثبت

اكل وشرب وذكاة وركوب لحيوان او سفينة تجوب

في دخول منزل وضده كمسجد ولبس ثوب نزعه

اطفاء مصباح وغلق باب والوطء عند الاخذ بالاسباب

وفي صعود من خطيب منبرا تغميض ميت لحده لا اكثرا (23)

كما ذكر ما ورد في الاثر في تفسير البسملة ، مسترسلا في الكلام عن الرحمة وما جاء فيها من قول وتفسير ، متخلصا الى ما في الافتتاح بالبسملة من البشارة الى ان المطلوب من العبد اذا اراد ان يحاول امرا من الامور ، اتى بها وتوج عمله بالاستفتاح بها ، مستحضرا عجزه وضعفه ، مستهدفا تسهيل كل عسير ، فيتم توجهه الى الله تعالى ، وانحياشه بالقلب اليه ، فان ذلك أقرب الى النجح (24) .

مختتما بقصيدة للشيخ الطيب بنكيران ، ألمح فيها لمعان اشتقاق اسم الجلالة ، ودعاء بالقبول والثواب ، ذاكرا تاريخ كتابة هذه الافتتاحية وهو اول رجب سنة 1343 هـ .

---

(22) ثالث افتتاح لاصح الصحاح : ص 188 .
(33) المصدر السابق : ص 194 - 195 .
(24) المصدر السابق : ص 205 - 206 .

ويلاحظ ان صاحب هذه الافتتاحية، تأثر فيها كثيرا بمـــا ورد في افتتاحية الشيخ عبد القادر الكوهن، واستغرق الجزء الاكبر منها، تلخيص « رسالة الاقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة »، كما انه عنى فيها بالحديث على البسملة والباعث للبخاري على تتويج صحيحه بها دون الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ذاكرا كل ما يتعلـــق بموضوع البسملة، من جميع الوجوه، دون ان يتناول متن حديث الاعمال او سنده، مما يجعل هذه الافتتاحية قريبة في موضوعها من افتتاح الشيخ حمدون بلحاج، علما بأن صاحبها جعلها تتمة للافتتاحيتين السابقتيـــن، مكملة لهما كما ذكر ذلك صدر افتتاحيته (25).

ختمـــات البخـــاري :

مـــدخـــــل :

ان الختمات او الختم من العادات المحمودة، والســـنـــن الكريمـــة المعهودة التي سجلها تاريخ الفكر الاسلامي، وعرفتها مراكـــز الثقافـــة بمناسبة انتهاء العالم او الشيخ من تدريس فن من الفنون، حيث يعقـــد مجلس حافل يسمى « بيوم الختمة » يكلل به مجالس الشيخ في الفن الذي يدرسه من نحو او فقه او تفسير او حديث، ويختم فيه الكتـــاب الذي درسه لطلبته وتلاميذه، بعد ان يستعد لختمته ويجتهـــد في اختيـــار موضوعه، مركزا على علومه ومعارفه، مفرغا كامل جهده وطاقته، ليكون مبرزا فيه، بسبب حضور علماء البلد وشيوخها معه في ختمته، ممـــا يدفعه لاظهار عبقريته ومقدرته العلمية، وخاصة في موضوع الختم او الفن المختـــــوم.

وهذا ما يجعل الختمات بما تمتاز به من تبريز العالم او الشيخ في فنه، وبما يحاط به مجلس الختم من أهمية وتقدير بحضور العلماء والكبار الى جانب الطلبة، وقد يحضره في أحايين كثيرة الملوك والامراء والكبار، كما حدث في المغرب مرارا، بالاضافة الى ان العادة جرت انه قلمـــا يتصدى للختم الا المبرزون والنبغاء وكبار العلماء، كل ذلك يجعل الختمة

(25) انظر الصفحة الاولى من ثالث افتتاح لاصح الصحاح.

بمثابة اطروحة او عرض يقدمه الشيخ امام العلماء والشيوخ من اقرانه ومنافسيه ، وربما الامراء والملوك والخاص والعام ، بما تمتاز به من املاءات ، واجتهادات ، وعروض شيقة ، في الفن المختوم .

ومن ذلك نجد ان الشيخ الحافظ ابا العباس احمد بن علي الزموري ، عندما انتهى من دروسه في تفسير الامام الرازي ، عقد مجلسا حافلا للختم ، ووجهت رقاع الدعوة الى عدد من كبار قادة البلاد ، وفي مقدمتهم الامير الشيخ ولي عهد السلطان المنصور السعدي ، وكان من بين من حضر يوم الختم الى جانبه عدد كبير من شيوخ العلماء وكبارهم ، كالامام يحيى السراج ، والقاضي الحميدي ، وغيرهما .

وقد كان موضوع الختم الذي اختاره الشيخ ، تفسير الآية الكريمة « واحل الله البيع وحرم الربا » حيث ذكر في مجلسه ثلاثة وعشرين تاويلا في تفسيرها (26) .

وعندما ينتهي الشيخ من ختمه يقوم الشعراء بالقاء قصائدهم ، تمجيدا للشيخ ، وثناء على عمله ، وذكر صفاته وتبريزه في الفن المختوم ، كما يحمل عند نهاية المجلس على الاعناق والكواهل من طرف طلبته ومحبيه الى بيته ، في مهرجان واكبار ، حيث يحتفل به رجال المدينة والعلماء ، ويقدم الحليب والتمر ، وتقام المآدب والاكرام ، وقد تقدم الى الشيخ بعض الهدايا والصلات من طرف الملوك والامراء (27) .

اما مناسبة الختم فتتعدد حسب الظروف ، فاذا كان الغالب انها تكون بمناسبة انهاء العالم دراسة فن من الفنون او كتاب من الكتب ، كما هو الشائع عند الانتهاء من دراسة الموطأ او الكتب الستة او الاجرومية او الالفية وغيرها ــ كما سنرى فيما بعد ــ فان الختم ايضا يكون في مناسبات اخرى ، عندما يتهيأ لجيش للخروج للجهاد وهو ختم القراءة ، كما حصل عندما كان يستعد الجيش المغربي بقيادة الملك السعدي للخروج الى جهاد البرتغال وقتالهم في معركة وادي المخازن قبل اربعة قرون ، اذ ختمت

(26) جامع القرويين 2 / 431 ــ الدكتور عبد الهادي التازي .
(27) الاتحاف ج 2 ــ عبد الرحمان بن زيدان .

سلك القرءان مائة ختمة ، وكذا ختم صحيح الامام البخاري ، كما نص على ذلك المؤرخان اليفرني ، وصاحب الاستقصا وغيرهما (28) .

كما كان الختم يقع بمناسبة تشييد قصر ملكي ، كما حصل أيام السلطان الحسن الاول ، عندما أمر بأن يدشن قصر الرباط بمجلس ختم صحيح الامام البخاري (29) .

هذا واذا كان المشهور المعروف فى المغرب ، ان اكثر الختمات كانت تتعلق بصحيح البخاري ، لشدة اهتمام المغاربة وعنايتهم بالصحيح خاصة، فان الختمات لم تكن مقصورة على علم بعينه ، أو فن خاص ، بل كانت تشمل أغلب العلوم والفنون ، فقد كانت هذه العادة جارية معروفة في المغرب ، اذ يعقد العلماء والدارسون مجالس للختم ، اثر انتهائهم من تدريس مختلف العلوم .

ذلك اننا نجد ختمات كثيرة ، فى الحديث، والنحو، والفقه ، والتفسير، وغيرها من العلوم والفنون ، كختمة كتاب الاربعين النووية للشيخ عبد الحي الكتاني ، وختمته لجامع الترمذي بالقرويين أملاها سنة 1328هـ (30) وختمة الشيخ المكيلدي لمختصر خليل بفاس (31) وختم السيدة زوج الشيخ المختار الكنتي للمختصر الخليلي ، اثر الانتهاء من تدريسه للنساء فى اليوم الذي ختمه زوجها بجهة أخرى (32) وختمة سيدي محمد بن جعفر الكتاني لصحيح مسلم ، وختمه للموطا أيضا (33) وختمة « الاجرومية » للشيخ عبد القادر بن سودة المسماة : « فتح القيوم في ختمة مقدمة ابن جروم » وهي مطبوعة (34) وختم « المرشد المعين » لعبد الواحد بن عاشر (35) وختمة الاجرومية لسيدي احمد بن جعفر الكتاني المسماة :

---

(28) نزهة الحادي : ص 65 .
(29) المغرب في عهد الدولة السعدية : ص 105 .
مدرسة الامام البخاري في امغرب للدكتور يوسف الكتاني 641/2 .
(30) فهرس الفهارس 1 / 420 .
(31) النبوغ 1 / 281 و 282 .
(32) معجم المحدثين : ص 30 /
(33) الموسوعة المغربية ع 2 ص 13 .
(34) توجد بالخزانة العامة تحت رقم 1820 د .
(35) الموسوعة المغربية ع 1 ص 6 .

« النفحات الوردية الندية لمريد ختم المقدمة الاجرومية » (36) وختمة الالفية لخليل بن صالح الخالدي التلمساني المطبوعة بفاس (37) وختمةعلى الرسالة لابن مغيرة احمد المكناسي أرباطي (38) وختمة للشمائل لابن عزوز محمد المفضل بن الهادي بن احمد (39) وختم الموطأ للشيخ البطاوري (40) وخاتمة الفيروزبادي في الاحاديث المشهورة (41) وختم « المواهب اللدنية » للشيخ عبد الكبير الكتاني ، وختم مسند ابي داود المسمى : « تحفة الودود في ختم مسند ابي داود » للشيخ محمد مرتضى الزبيدي (42) .

ختمات صحيح البخاري :

هذا فن من فنون الحديث ولون طريف من الوان التاليف فيه ، يكاد يتميز به المحدثون المغاربة على الخصوص ، فاذا كانت الختمات عرفت في العالم الاسلامي كله بالنسبة لسائر العلوم الاخرى ، فان ختمات البخاري لم تشتهر كما اشتهرت بالمغرب ، كمظهر فريد ومتميز ، يدل على مدى العناية الفائقة والاهمية الكبيرة التي اولاها المغاربة لصحيح الامام البخاري .

هذا ولا يعرف للختمات تاريخ معين ، لانها فن من فنون الحديث لم يؤلف فيه ولم يؤرخ له ، خاصة وأن أكثر الختمات لم تكن مكتوبة ولا مدونة ، وانما كانت تعقد مجلس الختم عندما ينهي الشيخ دراسة الصحيح، ويلقي ختمته ويبرز فيها ويحتفل بها ، ولكن احدا لا يسجل شيئا عنها ، خاصة وان وسائل الاعلام ووسائل التسجيل كانت قليلة ، وذلك ما يقف في وجه الدارس والمؤرخ عندما يبحث عن اقدم الختمات ، او عن أول ختمة للبخاري ليمكنه التاريخ لهذا الفن تاريخا علميا ، وهو ما احاول في

---

(36) الموسوعة المغربية ع 2 ص 101 .
(37) الموسوعة المغربية ع 2 ص 83 .
(38) الموسوعة المغربية ع 2 ص 6 .
(39) معجم المحدثين : ص 37 .
(40) فهرس الفهارس 2 / 270 .
(41) فهرس الفهارس 2 / 141 .
(42) فهرس الفهارس 1 / 408 – وانظر تفصيل الموضو بكتابنا « مدرسة الامام البخاري في المغرب 2/633 – 635 .

هذا البحث الوصول اليه ، اذ لم يسبقني احد ــ فيما اعلم ــ للتعريف بالختمات عامة وختمات البخاري خاصة .

كذلك لا يعرف اول من بدا هذا اللون من الحديث ، حتى يمكن ذكره في صف الرواد من اصحاب الختمات ، ولذلك يعود الاعتبار والتقدير الى اول ختمة موجودة لدينا ، حسب حياة صاحبها وتاريخ القائها وتحريرها ، في انتظار الكشف عن ختمات اخرى فيما بعد بحول الله ، وهذا ما يجعلنا نحجم عن الجزم بأحكام قاطعة في الموضوع ، مما يجعل الباب مفتوحا امام الاجيال المقبلة من الباحثين .

ان ختمات البخاري لم تكن مشهورة لدى المشارقة ، ولم تكن سنة مألوفة كما هو الشأن عندنا بالمغرب ، وخاصة بالنسبة للجامع الصحيح . حيث جرت العادة الحميدة ان يعقد الشيوخ والمحدثون مجالس ختمية ، عند الانتهاء من سرد الصحيح او تدريسه واقرائه وشرحه ، يكون موضوع المجلس شرح آخر حديث من احاديث الصحيح ، يقدم لموضوعه بمدخل يذكر فيه اهمية العلوم الشرعية وفي مقدمتها الكتاب والسنة ، وقد يؤرخ لتدوينها ، ثم يتحدث عن صاحب الصحيح ترجمته وحياته ، ويعرف بالجامع الصحيح وكيفية تأليفه ، ويتحدث عن مناسبة الحديث من الجامع ، وعن سنده ومتنه شرحا مستفيضا ، ثم يتخلص الى ذكر مروياته وسنده الفريد أو المتعدد للجامع الصحيح ، وقد يختم المجلس بنوادر وأدعية وأشعار .

ويشبه صنيع المغاربة في مجلس الختمات ، بمجالس الاملاء الحديثية التي عرفها الشرق ، وبز فيها المحدثون ، وعقدوا لها ابوبا في كتب المصطلح وأدرجوه في آداب المحدث ، كما هو الشأن في تدريب الراوي للسيوطي .

غير ان المشارقة لم يكونوا يتقيدون في مجالس الاملاء بكتاب خاص ، كما هو شأن المغاربة في ختمات البخاري ، اذ يعقد المحدث مجلسا يملي فيه بعض مروياته من حفظه ، ثم يختم المجلس بحكايات واشعار ونوادر ونكت تناسب المقام ، ومن اشهر اصحاب مجالس الاملاء عند المشارقة

نذكر الحافظ ابن حجر (43) الذي املى اكثر من الف مجلس ، وقبلـه شيخه الحافظ العراقي ت 762 هـ الذي املى اكثر من 4000 مجلس ، وزين الدين بن عبد الرحيم الحسني العراقي المصري (44) ، وبعده ولى الدين ابو الفضل احمد بن عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة 828 هـ الذي املى اكثر من ستمائة مجلس (45) ، والحافظ السيوطي ابو الفضل عبد الرحمان ابن ابي بكر السيوطي ت 919 هـ الذي عقد اكثر من مائة مجلس (46) ، ثم الحافظ شمس الدين ابو الخير محمد بن عبد الرحمان السخاوي ت 902هـ الذي بلغت مجالسه اكثر من ستمائة مجلس ، كما ذكر هو نفسه (47) والحافظ ابن الصلاح الذي سار على سنن شيوخه في ذلك .

وقد جمعت امالي المحدثين في كتب عرفت « بكتب الاماالي والاملاء » اذ كان من وظائف العلماء قديما خصوصا الحفاظ أهل الحديث ان يعقدوا في يوم من ايام الاسبوع يوم الثلاثاء او يوم الجمعة ، وهو أن يكون في المسجد لشرفهما ، وطريقهم فيه ان يكتب المستملي في اول القائمة :

هذا مجلس املاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ، يذكر التاريخ ثم يورد المملى بأسانيده احاديث واثارا ، ثم يفسر غريبها ، ويورد من الفوائد المتعلقة بها باسناد او بدونه ما يختاره ويتيسر له ، وقد كان هذا في الصدر الاول فاشيا كثيرا ، ثم ماتت الحفاظ وقل الاملاء ، وقد شرع الحافظ السيوطي في الاملاء بمصر سنة اثنين وسبعين وثمانمائة ، وجدده بعد انقطاعه عشرين سنة من سنة مات الحافظ ابن حجر على ما قاله في المزهر وكتبه كثيرة (48) .

واول ما نعرف من الختمات ما جاء في « فتح الباري » لابن حجر ، انه ختم البخاري واحتفل بذلك فيكون اقدم من نعلم — الى الآن — ممن ختم البخاري هو الحافظ ابن حجر المتوفى سنة 752 هـ ولا نعرف ان ختمته هذه دونت وكتبت .

(43) الدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر للسخاوي 2 / 336 .
(44) فهرس الفهارس 2 / 436 نقلا عن تدريب الراوي وفتح المغيث .
(45) فهرس الفهارس 2 / 436 .
(46) التدريب : ص 176 — فهرس الفهارس 2 / 352 .
(47) فهرس الفهارس 2 / 335 — 373 .
(48) الرسالة المستطرفة : ص 159 .

غير ان اول ختمة مدونة ومطبوعة نعرفها وتوجد بين ايدينا ، هي ختمة الامام القسطلاني شارح البخاري والمسماة « تحفة السامع والقارىء بختم صحيح البخاري » ، عثرت عليها مخطوطة بالخزانة الملكية تحت رقم 1173 (49) .

كما نجد في ترجمة الحافظ ابي الخير السخاوي ان له عدة ختمات، احداها في صحيح البخاري سماها : « عمدة القارىء ، والسامع في ختم الصحيح الجامع » (50) ، وله غيرها حول صحيح مسلم والشفا للقاضي عياض (51) .

وقد عرف نوعان من الختم :

ختم القراءة ، ويقصد به ختم سرده واسماعه ، وهذا كثير يكاد لا يخلو منه مسجد او مركز ثقافي ، حيث يتعبد الناس ، بسماع الصحيح واسماعه دائما ، وخاصة في الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان من كل عام ، وكما هو جار الى الآن بضريح الادريس بزرهون ، منذ سن قراءته القاضي محمد ادريس العلوي ، وما زالت تختم قراءته في محفل كبير عصر السادس والعشرين من رمضان من كل سنة ، بمحضر العلماء وممثلي السلطة وعامة الناس ، وتنقل الاذاعة حفل ا ختم في كل سنة ، وقد دابت على مشاركة العلماء في هذا المجلس منذ رجعت من الشرق منذ اكثر من عشر سنوات وما زلت الى الآن .

ونذكر من هذا النوع وهو كثير ، بعض العلماء الذين اشتهروا بقراءة الصحيح والمداومة على اسماعه واقرائه : مثل الشيخ جعفر الكتاني الذي ختمه ما بين سماع واسماع بالزاوية الكتانية بفاس اكثر من عشرين مرة (52) ، والشيخ عبد الكبير الكتاني الذي ذكر ولده الشيخ عبد الحي الكتاني انه ختمه خمسين مرة ما بين سماع واسماع واقراء ، وما ذكره ابن الابار في تكملته من أن ابن عطية ختم البخاري وحده سبعمائة مرة .

(49) وتوجد بمكتبتي مصورة عنها ، منها نقلت هذه المعلومات .
(50) فهرس الفهارس 2 / 335 .
(51) المصدر السابق 2 / 336 .
(52) المصدر السابق 1 / 132 .

والنوع الثاني ختم الاقراء : وهو عبارة عن المجلس الحافل الـــذي يعقده العالم او الشيخ ، بمناسبة انتهاء دراسته مع طلبته ، واقرائه للجامع الصحيح ، قراءة استيعاب وتمحيص ودراية ، ولذلك يتهيأ لمجلس الختم ، ويجتهد في الاعداد له ، لما يحاط به من هالة ، ولما يحضره من علمـــاء وشيوخ ، فيكون مناسبة لتبريز المحدث ، واظهار علمه وتفننه واطلاعـــه ، وهذا النوع الثاني هو المقصود بالختمات من بحثنا ، ومثل هذه الختمات العلمية هي التي كتبت ودونت ، وبقيت علامة واضحة في تاريـــخ الفكـــر المغربي ، وشاهدا ودليلا قويا على مدى عناية المغاربة وتفانيهم في الاهتمام بالجامـــع الصحيـــح .

ونجد من عيون هذه الختمات العلمية المدونة ، اقدمها وارعها ختمة الشيخ عبد القادر الكوهن في القرن قبل الماضي ، وسنقوم بتقديم دراسة موجزة عنها كنموذج مغربي لختمات البخاري (53) ، وختمة الشيخ محمد ابن حمدون بلحاج ، وختمة احمد بن الطالب بن سودة ، وختمة الشيـــخ جعفر بن ادريس الكتاني ، وختمة الشيخ العربي بن السائح ، وختمـــات تلميذه احمد بن موسى السلاوي ، وختمة الشيخ محمد بن جعفر الكتاني وغيرهـــــا .

على ان اروع ختمات البخاري وارفعها نفسا واشهرها ذكرا ، هـــي ختمة جدنا الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني المطبوعة بفـــاس (54) والتي املاها بجامع القرويين من الفلس الى الزوال ، في محفل مشهـــود ضاقت به رحاب القرويين ، وتحدث عنها الخاص والعام ، والتي اظهرت مكانته العلمية ومعرفته الواسعة بالحديث وعلومه ، والسنة وفنونها .

مناسبـــات الختـــم :

اذا كانت الختمات العلمية لصحيح البخاري هي المقصود بالذات ، وهي اللون المسجل والمدون من انواع الختمات ، فان مناسبات الختـــم كثيرة ومتعددة نذكر منها :

(53) توجد مصورة منها بمكتبتي عن الاصل المحفوظ بالخزانة الملكية .
(54) جميع هذه الختمات توجد نسخ منها اما اصلية او مصورة بمكتبتي .

الختم الذي يحصل بمناسبة خروج الجيش للجهاد وحرب العدو ، كما حصل عندما كان الجيش المغربي يستعد بمراكش للخروج لمقابلة البرتغال في معركة وادي المخازن بقيادة السلطان السعدي ، وكما سجل المؤرخون ذلك واثبتوه .

فنعدما عقد المنصور السعدي الراية للجيش في طريقه الى وادي المخازن وسط جامع المنصور بمراكش ، ختم عليها اهل الله حملة القرءان مائة ختمة ، وصحيح البخاري ، وصحبوا ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء بالنصر والتمكين (55) .

كما كان يختم صحيح البخاري ، بمناسبة تدشين القصور والمساجد والمدارس ، فقد أقام السلطان الحسن الاول عندما تم بناء قصره بالرباط، حفلا تدشينيا عقد في القصر نفسه ، وختم فيه الصحيح ختمة علمية ، حضرها الامراء ورجال الدولة وكبار الشيوخ والعلماء (56) .

وعادة الختم هذه داب عليها سلاطيننا وملوكنا منذ عرف المغرب الجامع الصحيح ، وخاصة على عهد الدولة السعدية ، في أيام المنصور السعدي ، الذي كانت سيرته في شهر رمضان المواظبة على سماع الصحيح وحضور مجالس اقرائه بين يديه ، وعقد مجلس حافل لختمه ، وقد تحدث عن هذا المجلس صاحب « الاستقصا » بقوله : (57)

« وهكذا كانت سيرته في شهر رمضان عند ختم صحيح البخاري ، وذلك أنه كان اذا دخل رمضان ، سرد القاضي وأعيان الفقهاء كل يوم سفرا من نسخة البخاري ، وهي عندهم مجزاة على خمسة وثلاثين سفرا ، في كل يوم سفر الا يوم العيد وتاليه ، فاذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخاري وتهيا له السلطان احسن تهيىء ، وكانت العاده الجارية عندهم في ذلك ، ان القاضي يتولى السرد بنفسه فيسرد نحو الورقتين

(55) نزهة الحادي لليفرني : ص 65 .
المغرب في عهد الدولة السعدية : ص 105 .
مدرسة الامام البخاري في المغرب 2 / 609 .
(56) انظر تفصيل ذلك في كتابنا مدرسة الامام البخاري في المغرب 640/2 - 644 .
(57) الاستقصا 5 / 153 - 154 .

من اول السفر ويتفاوض مع الحاضرين في المسائل ، ويلقى من ظهر له بحث او توجيه ما ظهر له ، ولا يزالون في المذكرة ، فاذا تعالى النهار ختم المجلس وذهب القاضي بالسفر فيكمله سردا في بيته ، ومن الغد يبتدىء سفرا آخر ، هكذا والسلطان في جميع ذلك جالس قريب من حاشية الحلقة قد عين لجلوسه موضع » .

هذا وقد اكتسى حفل ختم صحيح البخاري بزاوية الدلائيين طابع الموسم ، حيث تشد اليه الرحال من كل مكان ، ويطعم فيه الطعام على طريقة الدلاء الحاتمية ، ويلقي الشيخ محمد بن ابي بكر الدلائي درسا في نصف يوم كامل ، يشهده علماء من فاس ومراكش وغيرهما ، ويتلوه انشاد القصائد في مدح البخاري وكتابه ، والاشادة بشيخ الدلاء وسعة علمه ، ولم يكن الشيخ محمد بناصر الدرعي يتخلف في رمضان عن قراءة صحيح البخاري وختمه بزاوية « تامكروت » في نهاية انعهد السعدي (58) .

كما كان السلطان محمد الخامس كثيرا ما يعقد مجالس لختم كتب الحديث وخاصة الجامع الصحيح ، الذي يبتدىء قراءته بمحضره ، خلال ثلاثة اشهر من كل سنة ، ابتداء من رجب الى رمضان الذي يعقد فيه مجلس الختم بحضور علماء المملكة وكبارها واعيانها (59) .

وما زالت العناية بالصحيح قائمة ومجالسه دائمة مستمرة ، فقد داوم الملك الحسن الثاني على مجالس الحديث وخاصة في رمضان ، كما جرت العادة على اختتام تلك المجالس بختم الصحيح ، بقراءة آخر احاديث الصحيح سندا ومتنا مع دعوات وابتهالات ، وقد داوم على القيام بذلك الى الآن استاذنا الشيخ الرحالي الفاروق حفظه الله .

وما زالت مجالس البخاري قائمة بمولاي ادريس زرهون ، حيث تستمر قراءته طوال الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان ، صباح كل يوم ، ويختم عصر اليوم السادس والعشرين من رمضان ، في محفل كبير ومشهد عظيم ، يحضره العلماء والشرفاء ورجال السلطة وجمهور كبير من

---

(58) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين : 1 / 115 .
(59) جامع القرويين 2 / 467 .

انحاء المغرب . اذ يقوم جماعة من العلماء باسماع الاحاديث من الجامع الصحيح قدر الساعة من الزمان ، ثم يختم امام الضريح الادريسي عادة بقراءة الحديث الاخير من الصحيح ودعوات وابتهالات .

وقد كان لي شرف ختم الجامع الصحيح بالقبة الحسنية بالضريح الادريسي الاكبر ، في ليلة القدر من سنة 1396 هـ - 1976 م ، حيث امليت ختمة علمية في مشهد عظيم ، تناولت فيها الكلام على الحديث الاخير من البخاري ، مترجما لرجال سنده ، وشارحا لمتنه ، وقد قامت الاذاعة بنقل الختمة المذكورة مباشرة في حينها ، وبذلك اكون قد ساهمت في احياء هذه السنة الحميدة والعادة الكريمة .

كذلك ما زال البخاري يقرا ويختم الى الآن في الزوايا الناصرية « بتامكروت » حيث يقرا في نسخة ثلاثينية ، منها يقرا جزء كل يوم ، ثم يقع ختمه في آخر شهر رمضان في حفل مشهود ، كما يقرا ويختم في زوايانا الكتانية الشهيرة يوم الموسم من كل عام .

وما زال اهل زاوية ابن السبع يداومون على قراءة واقراء صحيح البخاري وختمه وخاصة في شهر رمضان .

ونذكر من المدن التي تحافظ على سنة اسماع البخاري وقراءته مدينة مكناس ، حيث تفتح قراءة البخاري في عدة أماكن في شهر رمضان، سواء بالمسجد الاعظم الذي تبتدىء قراءته في مستهل رمضان ، ويختم فى مشهد كبير بعد زوال السادس والعشرين من رمضان ، كما يقرا في نفس الشهر وبنفس الاهتمام ، بالزاوية الكتانية ، وبالزاوية العلمية ، والزاوية الكنتية وغيرها (60) .

انعام وهدايا بمناسبة الختم :

اشرنا فيما سبق الى انه يحتفي بالخاتم عند نهاية ختمته ، حيث تلقى في المجلس قصيدة او قصائد للتنويه به وباللفن المختوم ، كما

---

(60) العز والصولة 1 / 177 - 178 .
مدرسة الامام البخاري في المغرب 644/2 .

يحتفى به حيث يحمل على الكواهل والاكتاف في موكب ضخم الى داره ، وتقدم الاطعمة الى المحتفلين ، وقد تقدم اليه بعض الهدايا والصلات .

من ذلك ما نجده مسجلا في فهرس للوثائق ، من انه كانت تمنح صلات لاصحاب الختمات تكريما لهم وتشجيعا ، اذ نجد انه صدر الامر بتنفيذ صلة بمناسبة ختم الصحيحين (61) .

كما نجد أمرا آخر بتنفيذ صلة بمناسبة ختم صحيح البخاري ، (62) وصدر ايضا انعام بمناسبة ختم صحيح البخاري (63) ، وتنفيذ صلة بمناسبة ختم صحيح البخاري أيضا (64) .

دعــوات الختــم :

لقد جرت العادة ان ينهي الخاتم مجلس الختم ، بدعوات وابتهالات مشهورة ، وصلوات على النبي الكريم ، مستمدة من الحديث الشريف ، ومن آثار العلماء والصالحين ، وقد يكون الاختتام بقصيدة شعرية في الكمالات المحمدية ، كما فعل الشيخ محمد ابن عبد الكبير الكتاني عند نهاية ختمته ، مع ملاحظة اختلاف اسلوب دعوات الختم حسب زمان الختم ووقته ، وتبعا لمشرب الخاتم ونفسه .

وقد تجمع لدينا من مجموع ختمات البخاري المغربية ، دعوات وابتهالات وصلوات على الرسول الاعظم ، نذكر من احسن ما قيل منها عند الختم :

الحمد لله ما وجد بآخر نسخة من صحيح البخاري بخط الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي ، ومن خطه ايضا يعنى أبا عمران بن سعادة رضي الله عنه ، قرىء على الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف رضي الله

(61) فهرس الوثائق لجائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق س 77 ص 34 .
(62) المصدر السابق ص 36 .
(63) المصدر السابق ص 37 .
(64) المصدر السابق ص 38 .

عنه ، والفقيه ابو علي رضي الله عنه يسمع ، قال ، قال ابو ذر سمعت ابا الهيثم يدعو بهذا الدعاء عند فراغه من قراءة كتاب البخاري :

الحمد لله حمد معترف بذنبه ومستأنس بربه ، جعل فاقته اليه واعتمد في العفو عليه . . . ذنوبه تقلقه ، روح قلبه بذكره ، وطاش عقله من جرمه ، لا يوجد في احواله الا قلقا وطائر القلب فرقا ، وخوفا من النار وفضيحة العار ، وغضب الملك الجبار ، اذا ميز الاخيار والاشرار ، وجيء بالجنة والنار ، وبدلت الارض وانشقت السماوات ، وتناثرت النجوم الزاهرات ، وانتظر المحشورون ماذا يكون في ذلك اليوم ، يوم وأي يوم ، يوم يفزع من هوله المحسنون ، ويغرق في بحاره المسيئون ، في يوم تلاحقت أوجاله وترادفت أهواله ، ونادى المنادي باسمك تدعى الى الحساب والى قراءة ما حصلته في ذلك الكتاب ، وتقام بين يديه عاصيا ، وتقدم اليه خاطيا ، فاما مغفور لك فصرت الى الجنة مسرورا ، واما مسخوط عليك فصرت الى النار ماسورا ، نعوذ بالله من النار ونسأله البعد منها ، فانك ملك كريم جواد رحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما (65) .

ومن ذلك ما أنهى به الشيخ عبد القادر الكوهن ختمته المشهورة : « نوافح الورد » بقوله : ومن أحسن الادعية وأجمعها لخير الدارين وارجاها للاجازة ، خاتمة دعاء الفرج الذي رواه جعفر الصادق رضي الله عنه عن أسلافه الكرام مرفوعا وهو : اللهم اني أسالك ايمانا دائما الخ ، روى الترمذي والحاكم في نوادر الاصول بسنده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه اتاه جبريل عليه السلام بينما هو عنده ، اذ اقبل ابو ذر فنظر اليه جبريل فقال ابو ذر ، قال : فقلت : يا امين الله وتعرفون انتم ابا ذر ؟ قال نعم ، والذي بعثك بالحق بشيرا ونذيرا ، ان ابا ذر اعرف في السماء منه في الارض ، انما ذلك بدعاء يدعو به كل يوم مرتين ، تعجبت الملائكة منه ، فادعه وسله عن دعائه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابا ذر دعاء تدعو به كل يوم مرتين ، قال نعم ، فداك ابي وامي ما سمعته من بشر ، وانما هو عشرة احرف الهمني بها ربي الهاما ، وانا ادعو به كل يوم

(65) منقول عن نسخة خطية من صحيح البخاري بالخزانة الملكية ص 451 .

مرتين ، استقبل القبلة فاسبح الله مليا وأحمده مليا ، واهلله مليا واكبره مليا ، ثم أدعو بتلك العشر الكلمات : اللهم اني اسألك ايمانا دائما ، واسألك قلبا خاشعا ، واسألك علما نافعا ، واسألك يقينا صادقا ، واسألك دينا قيما ، واسألك العافية ، واسألك دوام العافية ، واسألك الشكر على العافيـــة ، واسألك الغنى عن الناس ، قال جبريل يا محمد والذي بعثك بالحـــق ، لا يدعو احد من امتك بهذا الدعاء الا غفرت له ذنوبه ، وان كانت أكثر من زبد البحر وعدد تراب الارض ، ولا يتوفى احد من امتك وفي قلبه هذا الدعاء ، الا اشتاقت اليه الجنان ، واستغفر له الملكان ، وفتحت له أبواب الجنة ، فنادت الملائكة يا ولي الله ادخل من أي باب شئت (66) .

وقد ورد في ختم المجلس احاديث كثيرة واخبار شهيرة ، فعـــن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من جلس مجلسا كثر فيه لغطه ، فقال قبل ان يقوم من مجلســه ذلـــك ، سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت ، استغفرك وأتوب اليك ، الا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » ، وعن أبي برزة الاسلمي رضي الله عنه قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا اراد ان يقـــوم مـــن المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا الاه الا انت أستغفرك وأتوب اليك، فقال رجل يا رسول الله انك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى ، فقال كفارة لما يكون في المجلس . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا ، ولا تلا قرآنا ، ولا صلى صلاة ، الا ختم ذلك بكلمات ، فقلت يا رسول الله : اراك ما تجلس مجلسا ولا تتلو قرآنا ولا تصلي صلاة الا ختمت بهؤلاء الكلمات ، قال نعم من قال خيرا كن طابعا له على ذلك الخير ، ومن قال شرا كانت كفارة له ، سبحانك اللهم وبحمدك لا الاه الا أنت استغفرك واتوب اليك . وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرك وأتوب اليك ، من قالها في مجلس ذكر كان الطبع يطبع عليه ، ومن قالها في مجلس لغو كان كفارة له .

(66) ختمـــة الكوهــــن ص 127 – 128 .

بعض الختمات المشهورة :

ختمة صحيح البخاري (67) المسماة : « اظهار نفائس آدخاري المهيات لختم كتاب البخاري » :

أبو العباس احمد بن قاسم ساسي البوني المتوفى سنة 1139 هـ .

ختمة البخاري (68) :

ابو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان الفاسي ، المتوفى سنة 1144 هـ .

ختمة البخاري (69) المسماة : « نوافح الورد والعنبر والمسك الداري لشرح آخر ترجمة صحيح الامام البخاري » :

للشيخ عبد القادر الكوهن المتوفى سنة 1254 هـ .

ختم البخاري (70) :

محمد بن حمدون بن الحاج المتوفى سنة 1274 هـ

ختمة البخاري المسماة : « عون الباري على فهم آخر تراجم صحيح الامام البخاري » (71) :

أحمد بن الطالب بن سودة المتوفى سنة 1321 هـ / 1905 م .

---

(67) فهرس الفهارس 1 / 169 .
(68) توجد بالخزانة العلمية الصبيحية بسلا .
(69) توجد بالخزانة الملكية تحت عدد 892 د .
(70) توجد بالخزانة الملكية تحت عدد 173 .
(71) مطبوعة بفاس وتوجد مصورتها بمكتبتي .

ختمة البخاري المسماة : « شرح آخر ترجمة من صحيح الامام البخاري » (72) :

الشيخ جعفر بن ادريس الكتاني المتوفى سنة 1323 هـ .

ختمة صحيح البخاري (73) :

للشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني المتوفى سنة 1327 هـ .

ختمة اخرى له (74) :

للشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني .

ختمة البخاري (75) :

للشيخ العربي بن السائح المتوفى سنة 1309 هـ / 1892 م .

ختمة صحيح البخاري (76) :

احمد بن موسى اليلوي المتوفى سنة 1328 هـ .

ختمة اخرى له (77) :

لنفس المؤلف المذكور .

ختمة البخاري (78) :

التهامي بن المدني كنون المتوفى سنة 1331 هـ .

---

(72) مطبوعة بفاس .
(73) مطبوعة بفاس بالمطبعة الجديدة سنة 1323 هـ .
(74) مخطوطة المظاهر السامية .
(75) مخطوطة الا انها مبتورة ، توجد مصورتها بمكتبتي .
(76) مخطوطة وتوجد نسخة منها بمكتبتي هدية من ولد المؤلف الفقيه المقرىء عبد الرحمان بنموسى .
(77) توجد بالخزانة الملكية .
(78) الشرف المصون لآل كنون ص 28 .

ختم الصحيح (79) :

للشيخ عبد الكبير الكتاني المتوفى سنة 1333 هـ .

شرح ختم صحيح البخاري (80) :

محمد بن جعفر الكتاني المتوفى سنة 1345 هـ .

ختمة البخاري (81) :

محمد المكي البطاوري المتوفى سنة 1355 هـ .

ختمة البخاري (82) :

محمد المدني بن الحسني المتوفى سنة 1378 هـ .

ختمة البخاري (83) :

للشيخ الرحالي الفاروق .

(79) فهرس الفهارس .
(80) الرسالة المستطرفة مقدمة الناشر حرف (أ) .
(81) شخصيات مغربية (3) ص 98 عبد الله الجراري .
(82) شخصيات مغربية (2) ص 92 عبد الله الجراري .
(83) ختمة مختصرة نشرت بكاملها لاول مرة في كتابنا مدرسة الامام البخاري في المغرب . 669/2 ـ 684 .